



مناقشات ٢

خرقة النص*

ما الذي نعنيه بالنص؟

وما هي حدود قراءته؟

ولماذا يتردد هذا المصطلح في الآونة الأخيرة كثيراً في القراءات المختلفة، فأصبحنا نسمع ونقرأ كلمة «نص» بشكل لافت بدءاً من اقترانها بالفنون الإبداعية وانتهاءً بتوصيف هذا المصطلح والبحث فيه بشكل مستقل («استراتيجية النص»، «نظرية النص»، «نقد النص»، «حقيقة النص»،... الخ) بحيث لم يعد مجرد أداة للمعرفة بل أصبح هو نفسه ميداناً معرفياً مستقلاً، أي مجالاً لإنتاج معرفة تجعلنا نعيد النظر فيما كنا نعرفه عن النص والمعرفة في آن^(١).

وأخيراً وصلنا إلى «موت النص»، الذي أعلنه الأستاذ محمد أبو الفضل بدران، بعد أن أعلن غيره «موت المؤلف»، لندخل في مخاضات كثيرة تحتاج إلى وقفات دقيقة لنحدد حقيقة ما نقرأ وحقيقة ما نكتب قبل أن نُعلن موت الأشياء جميعاً، فلا نجد ما نكتب عنه أو نتنتجه!

والسؤال الذي أطرحه: هل مصطلح «النص» خدعة؟ وهل نحن مخدوعون في هذا الحقل الجديد الذي أسميه «الحقل النصّي»؟

لا أتصور أن الأمر مجرد خدعة. ولكن كثرة المصطلحات والمسميات والتهويمات أحياناً تحيلنا على الإقرار بخدعة النص. إلا أن القراءة المعقدة تحيلنا على حقيقة النص بشكل عام وتجعلنا نختلف مع الأستاذ أبو الفضل في أشياء ونتفق في أشياء:

- فلا بد، أولاً، من تحديد المصطلح وتخصيصه والأوقعا

في التعميم، والتعميم أحياناً يوقع في مطبّ يبعدنا عن الحقيقة...

- ثم إن فكرة «موت النص» تتناقض مع كل ما طرحه الدكتور أبو الفضل. فهو يقول «بموت النص»، وفي الوقت نفسه يجعل من «النص» متكاً له لإنتاج نصه النقدي. ورغم أن الفكرة التي يسعى إلى إثباتها خلال تقسيماته (اللانص - النصّ الموجود - النصّ الظل) تنطلق من منطق جديد لفهم النص، إلا أن هذه التقسيمات تحتاج إلى مزيد من التدقيق. فالنص عنده يعني النصّ الموجود بين اللانص والنصّ الظل، أو هو النصّ وما قبله وما بعده. ويعيد الدكتور أبو الفضل التسميات للمعنى الواحد:

اللانص = ما قبل النص = النص المقترح.

النص = النص الموجود.

النصّ الظل = النص المفقود.

وبراه تارة يُطلق على الحالة التي تسبق إنتاج النص بـ «اللانص»، ويعيد تارة أخرى تسميتها بـ «النص/اللانص» أو «النص المتخيل». وهذا ما أربك تسمياته ومصطلحاته حول مفهوم النص، فلم نعد نعرف النص الذي يسعى إلى الحديث عنه: أهو النص الموجود المجسّد على الورق، أو النص/اللانص أي النص المتخيل، أم النص الظل/النص المفقود؟ كلمة «نص» مقترنة بالحالات جميعاً، الأمر الذي يحيلنا على وجود النص في الحالات الثلاث وينفي فكرة «موت النص». وأقترح تسميات أخرى كنت اشتغلت عليها في كتابي الذي سيصدر قريباً، وعنوانه: **وانجزت جنوني** (وهو

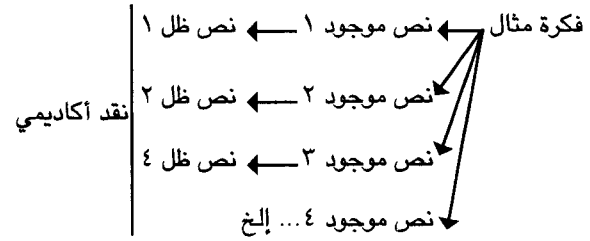
* - مناقشة لبحث محمد أبو الفضل بدران: «النصّ، والنصّ المضاد، والنصّ الظل»، الآداب ٢/١ (كانون الثاني - شباط) ١٩٩٨.

١ - علي حرب: نقد النص (بيروت: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٣)، ص ٧.

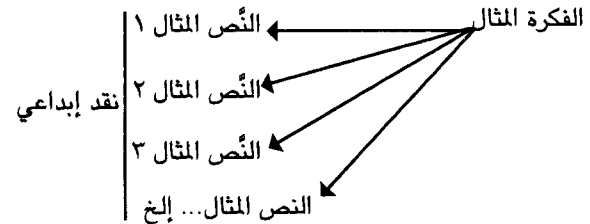
دراسة في رواية بينما الزمن يفكر في أمور أخرى، للكاتب السويدي نيكلس رودستروم). وهذه التسميات هي:

الفكرة المثال — النص الموجود — النص المثال وأقصد بـ «الفكرة المثال» حالة التخيّل التي تسبق التجسيد؛ فهي البذور الأساس للنص وليست نصاً، لأنها ما زالت ضمن هيولى التفكير ولم تتجسد في إطار إبداعي محدد. وحين تتجسد في قصيدة أو قصة أو نقد، يمكننا أن نطلق عليها اسم «النص». وهذه الحالة [أي الفكرة المثال] تختلف من كاتب إلى آخر لأنها مرتبطة بأشياء خاصة بهذا المبدع أو ذاك (كالثقافة، والبنية المعرفية)، وهي - شأنها شأن البصمات - لا يمكن أن تتشابه بين إنسان وآخر.

ويمكن أن نوضح الأمر أكثر. فلنأخذ موضوعاً معيناً في أي حقل من حقول الإبداع أو المعرفة، ونطلب من عدد من الكتاب أن ينتجوا نصاً موجوداً حوله. فسوف تتعدد النصوص الموجودة بعدد الكتاب الذين عالجهوا، رغم أن الفكرة المثال واحدة:



بينما يعتمد النصُ المثالُ على الفكرة المثال أي:



فالنص المثال لا يساوي النص الظل، لأن النص الظل مستند إلى النص الموجود في إنتاجه، وأما النص المثال فمستند إلى الفكرة المثال. إلا أن النص الموجود يقوم بدور الحافز لإعادة إنتاج الفكرة المثال ضمن نصه المثال، لأن المثال هو الذي لم يقله المؤلف.

وهذا التعامل يتقاطع مع بعض ما دعا إليه علي حرب حين يقول: «فلا ينبغي التعامل مع النصوص بما تقوله وتنص عليه

أو بما تعلنه وتصرّح به، بل بما تسكّط عنه ولا تقوله، بما تخفيه وتستبعده»^(*). فوجهة نظرنا تتقاطع مع هذا الكلام في نقطة البحث عن المسكوت عنه، وتختلف في نقطة إغفال ما تقوله النصوص. فكلمات: «إغفال»، «إلغاء» «موت»... الخ كلمات لا تنطبق على أسلوبية الطرح؛ فما تقوله النصوص هو الحافز للوصول إلى ما سكّطت عنه. لذلك يمكن القول إن النص الظل الذي تحدث عنه أبو الفضل بدران يساوي النقد الأكاديمي، أما النص المثال الذي تحدث عنه فيساوي النقد الإبداعي أو النص الموازي للنص الإبداعي، بحيث يكون النص الموجود حافزاً دون أن يساهم في تشكيل النص المثال. ويمكن إجراء مقارنة بين النقد الأكاديمي والنقد الإبداعي:

- النقد الأكاديمي لا يستطيع الخروج عن بنية النص المكتوبة، وإنما يلتزم بها حرفياً. فهو تابع لبنية النص، وليس مستقلاً، ولذلك يمكن تشبيهه بالظل لأنه يعتمد على النص الموجود ويتحدد برؤيته فقط.

- الناقد المبدع هو الذي لا يلتزم بالنص ولا بنيته، وإنما يمثل النصُّ عنده بنيةً مستقلةً عن بنية النص الموجود. ولذلك يعتمد على الفكرة المثال في تحديد مساره وبنيته النصية، فينتج نصاً ثالثاً مستقلاً غير تابع، وينتج رؤياً لم يقلها النصُّ الموجود.

- الناقد الأكاديمي يعتمد على النص الموجود انطلاقاً من انتهاء إنجازهِ واكتمال بنيته. ولذلك لا يتعامل مع التوتر الداخلي في النص والاستبصار والكشف النصي.

- الناقد الإبداعي يعتمد على الفكرة المثال بوصفها بنيةً لم تُنجَزْ بعدُ ولم تتجسد كما يجب. ولذلك يخلق حالة من التوتر ويتجه إلى حالة الاستبصار في النص، بحيث يقوم على تنظيم العلاقات الداخلية في النص.

وهذا الأمر يقودنا إلى القول بأنه لا توجد سلطة مطلقة للنص، ولا يوجد نصٌ مطلق لا في الفكرة المثال ولا في النص الموجود ولا في النص المثال. فكل النصوص هي نصوص نسبية بعضها بالنسبة إلى بعضها الآخر وإلى كتابها. فالنص مهما كان ترتيبه هو محاولة أولية لإنتاج محاولات مختلفة تسعى إلى الكمال؛ وفي سعيها إلى الكمال تكشف عن حالاتها الداخلية التي تحدد مسارها.

بهيجة مصري إدلبي

حلب

* - علي حرب: المصدر السابق، ص ١٥.